

## الوجه الآخر للشعر الأندلسي

### حصار بلنسية - نموذجاً -

شوف عبيد - تونس -

إن الصورة السائدة التي نحملها عن الشعر الأندلسي أنه شعر أنس و ترف بما فيه من صدى لمجالس رثاء الأوتار و حفيف الورود والأزهار لكن الوجه الآخر المخفي في تلافيف النسيان هو أنه يحمل ملامح وجه المحن والحروب بما فيها من آثار المعاناة و ألم المأساة تلك التي عاشها العرب في الأندلس وهم يشاهدون عقد بلدهم ينتشر بعدما إنتظم لهم قرونا حتى صارت الأندلس وطننا لهم فيه حسب و نسب و به يفاخرون وقد صور شعراؤهم أحوالهم وما كان ينتابهم من قلق و خوف على المصير و هم يترددون بين الأمل في النجاة و اليأس من الخلاص

إن الشعر الأندلسي - من هذه الناحية - يُعتبر سجلاً حافلاً رصد البداية و النهاية في أدق التفاصيل و في أصدق المشاعر للعرب بين الانتصار و الإنكسار (1) و قد سجل الأدب الإسباني هو أيضا البعض من تلك الحوادث

فعندما طلع القرن الخامس الهجري (11م) على الأندلس ألفاها في خضم فنتتها الكبرى تتقاتل المدائن فيها حتى أضحى مقسمة بين ملوك الطوائف بعضهم يكد إلى الآخر و يتناحرون في حروب بلا هوادة مما جعلهم ثمرات يحين قطافها الواحدة تلو الأخرى كلما سنحت الفرصة بين أيدي الممالك الإسبانية المتربصة

و بداية من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري إنقلب ميزان القوى بكل وضوح لصالح تلك القوة الإسبانية التي تمكنت من تجاوز خلافاتها الداخلية لمواجهة الدويلات الأندلسية وتحديها ثم دحرها الواحدة تلو الأخرى مما جعل شاعرا مثل ابن عسّال يقول بعد سقوط طليطلة مسقط رأسه و رحيله عنها :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم \*\*\* فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه و أرى \*\*\* ثوب الجزيرة منسولا من الوسط  
و نحن بين عدو لا يفارقنا \*\*\* كيف الحياة مع الحيّات في سفت ( 2 )

### حصار بلنسية

استفحلت الخلافات بين ملوك الطوائف في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري (11م) خاصة في شرق الأندلس مما ساعد أحد الفرسان الإسبان يعرف بلقب (السيد) ( 3 ) على إغتنام فرصة ثورة داخلية في مدينة بلنسية فضرب حولها الحصار الشديد من جهاتها المختلفة و عمل على منع المدد إليها والفتك بالخارجين منها و كان البلنسيون يؤملون في نجدة المرابطين من المغرب إذ قال أحد شعرائهم مستهزئا من عيافة الطير التي التجأ إليها الإسبان لمعرفة وقت استسلام المدينة ( 4 ):

قولوا للذريق إن الحقّ قد ظهرها \*\*\* أو فقدوه إذا ما طيرُهُ زجرا

سيوف صنهاجة في كل معترك \*\*\* تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

و يقصد بلذريق (السيد) و يشير بصنهاجة إلى قبيلة المرابطين الذين ينتسبون إليها , لكنهم خيبوا أمل أهل بلنسية بالرغم من أن جيشهم قد وصل إلى أحوازها ثم انسحب دون محاولة إنقاذ المدينة ( 5 ) و قد أورد الدكتور جمعة شيخة في كتابه (الفتن و الحروب و أثرها في الشعر الأندلسي) نصا لابن علقمة يصف فيه الحصار الذي دام أكثر من سنة و ذلك سنة 487 هـ الموافقة لسنة 1094 م ومما جاء في ذلك النص الوثيقة ( 6 ) قوله :

( بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال و نصف و رطل الشعير بمثقال و رطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال و أوقية الجبن ثلاثة دراهم و أوقية البصل بدرهم و رطل البقل بخمسة دراهم و بيضة دجاجة بثلاثة دراهم و رطل اللحم البغلي بستة دنانير و رطل الجلد البقري بخمسة دراهم و في ربيع الثاني عظم البلاء و تضاعف الغلاء و استوى في عدم القوت الفقراء و الأغنياء فأمر ابن جحاف بإقتحام الدّور فحصى عن القوت... و إنسلخ هذا الشهر و رطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ما سواه تابع له و لا

يصل إلى إدراك شيء من الوجود إلا أهل الجاه، و ترمق سائر الناس بالجلود و الأصماغ و عروق السوس و من دون هؤلاء بالفيرة و القطط و جيف بني آدم و هُجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد و وزع لحمه وجدّ الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة لئلا يخرج الضعفاء و يتوفر القوت على الأغنياء، فهان على الناس الإحراق بالنار فعيث فيهم بالقتل و عُلق جثثهم من صوامع الأرياض و بواسق الأشجار )

وقد كان الأديب أبو الوليد الوقشي شاهدا على حصار بلنسية حيث كان عمره 74 سنة فأنشأ قصيدة في وصف هذه المحنة و قد وصلت إلينا بعض أبياتها في ترجمتها الإسبانية التي تعرف بمرثية الوقشي لبلنسية ( 7 ) و قد عبّر فيها عن حبه لبلنسية فوصف جمالها الطبيعي وازدهار العمران فيها ثم ذكر في أسف و حزن نكبتها مرددا عند آخرها قوله شعرا :

إذا أنا مضيت يمينا هلكت بماء الفيضان

و إن ذهبت يسارا أكلني السبع

و إذا مضيت أمامي غرقت في البحر

فإذا التفت خلفي أحرقنتي النار

### صدى الحصار في الشعر الإسباني

تضمّن الشعر الإسباني صدى لهذه الواقعة التاريخية فقد أنشئت ملحمة كاملة من وحي حصار بلنسية تعرف بملحمة السيّد و قد أوردها الدكتور أحمد مكّي ضمن دراسة مقارنة ( 8 ) و الاسم الحقيقي للسيّد هو - رودر جوديث دي ييار - أما كلمة السيّد فلعلها تكون من اللفظة الأندلسية أو أنها بمعنى الذئب وهو أمر شائع في ذلك العصر في الأندلس عند أهلها جميعا

أما الملحمة فهي وصف للحصار بما تخلله من فقد للطعام و معاناة مفصلة لأهل بلنسية و قد جاء فيها أمر طلب النجدة من مراكش و في الملحمة وصف للجيش و

للمعركة ثم تذكر النصر على بلنسية و الظفر بالغنائم العديدة والتمينة و منها هذه المقاطع ( 9 )

بقي سكان بلنسية مرعوبين

لا يجرؤون على الخروج و ليسوا راغبين في النضال

بينما السيد يدمر جنانهم و يلحق بهم أفدح الأضرار

و خلال هذه الأعوام حال بينهم و بين الحصول على أي طعام

و ضجّ سكان بلنسية شاكين و حاروا ماذا يفعلون

لم يعودوا يحصلون على الخبز من أي مكان

و ذهل كل والد عن ولده، و لم يعد الأبناء يساعدون الآباء

و لا الصديق صديقه، لم يعد أحد يعاون في الضراء

و ضجّ سادة القوم فلم يعودوا يملكون رغيفا من الخبز

و ماتت الزوجات جوعا و مات الأبناء

فأرسلوا إلى ملك مراكش يطلبون العون

و ضرب سيدي حولها حصارا دقيقا صارما

لا يفلت منه إنسان

لا أحد من سكانها يستطيع خروجا أو الدخول

و ضرب لهم أجلا لعل أشقاءهم لمساعدتهم يقدمون

و دام الحصار مستمرا تسعة أشهر بلا انقطاع

و بمجيء العاشر أحتت المدينة رأسها مستسلمة...

وقد وصف ابن عذاري المراكشي دخول الجيش الإسباني مدينة بلنسية وفتكه بقاضيه

الذي أرقوه حيّا على مشهد من أهله ( 10 )

## الغلاء عن بلنسية و إحرافها

سجل ابن حمديس إسترداد المدينة على يد المرابطين الذي هبوا بعدئذ لنجدة بلنسية و تحريرها سنة 495 هـ الموافق لـ 1102 م وذلك في قصيدة مطلعها ( 11 )

الآن سجّ غمام النصر فإنهملا

و قام صخر عمود الدين فإعتدلا

و لاح للسعد نجم قد خوى فهوى

و كزّ للنصر عصر قد مضى فخلا

و ثار يطلع نفع الجيش معتكرا

بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا

و للقنا أعين قد حدقت حنقا

و للظبي ألسن قد أفصحت جدلا

فزاحم النقع حتى شقّ برده

و ناطح الموت حتى خرّ منجدلا

و يقصد ابن خفاجة بهذا المستلقي القتيل ابن - السيد - نفسه المسمّى ( 12 ) ( دياقو ) ثم يتعرض لهزيمة الإسبان مبينا أثر الذل و الهوان في نفوسهم و قد ظهر على الوجوه في قوله :

كأنني بعلوج الروم سادرة

و قد تضع ركن الكفر فاستفلا

في موقف يذهل الخل الصفي به

عن الخليل و ينسى العاشق الغزلا

ترى بني الأصفر البيض الوجوه به

قد راعها السيف فإصفرّت له وجلا

و بنو الأصفر يعني بهم الشاعر الإسبان الذين أحرقوا بلنسية عند الجلاء عنها فتحولت إلى أشباح و أكوام بعد عمران وازدهار و قد سجل الأدباء هذه الأحداث التي ألمت بلنسية على يد (السيد) و المعروف أيضا بالكنبيطور فقد كتب أبو عبد الله بن علقمة الصدفي كتابا خاصا بها سماه (البيان الواضح في الملمّ الفادح) كان مصدرا أساسيا لأخبار تلك الوقائع و قد أخذ عنه ابن الأبار وابن عذاري (13) و قد شهد كذلك أبو عبد الرحمان بن طاهر حال بلنسية في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري بما تخللها من حصار و دمار فقال و قد نقل عنه ابن بسام في الذخيرة قائلا :

(فلو رأيت قطر بلنسية، نظر الله إليه، و عاد بنور عليه، و ما صنع الزمان به و بأهليه، لكنك تندبه و تبكيه، فلقد عبث البلد برسومه، وعدا على أقماره و نجومه، فلا تسأل عما في نفسي، و عن نكدي و بأسني)

و قد أثار خراب بلنسية بعد حصارها ابن خفاجة فقال هذه الأبيات يرثيها

عائت بساحتك العدى يا دار \*\*\* و محاسنك البلى و النار

فإذا تردد في جنابك ناظر \*\*\* طال إعتبار فيك وإستعمار

كتبت يد الحدثنان في عرصاتها \*\*\* لا أنت أنت و لا الديار ديار

و قد رأى إحسان عباس أن قصيدة ابن خفاجة كانت أكثر أبياتا و لم يبق منها إلا هذه الأربعة أبيات، ذلك أن بلنسية كانت جزءا من معاهد الشاعر و عهوده و أمّ وطنه (14)

و أثار ما أصاب بلنسية أيضا شاعرية الأديب و العالم أبي عبد الله بن خلسة عندما تذكر رياضها الغناء فقال

و روضة زرتها للأنس مبتغيا \*\*\* فأوحشتني لذكرى سادة هلكوا  
تغيرت بعدهم خربا و حق لها \*\*\* مكان نوارها أن ينبت الحسك  
لو أنها نطقت قالت لفقدهم \*\*\* بان الخليط و لم يرثوا لمن تركوا (15)

و من الشعراء الذين تفاعلوا مع نكبة بلنسية فذكروها في شعرهم ابن عياش  
الذي قال فيها

بلنسية بيني على القلب سلوة \*\*\* فإنك روض لا أحن لزهرك  
وكيف يحب المرء دارا تقسمت \*\*\* على صارمي جوع و فتنة مشرك (16)

أما الشاعر ابن حريق فقد أكد تعلقه بالمدينة رغم النائبات التي تسلطت عليها  
وشبهها بالجنة المحفوفة بالمكروه حيث قال فيها :

بلنسية قرارة كلِّ حسن حديث صح في شرق و غرب  
فإن قالوا: محل غلاء سعر و مسقط ديمتي طعن و ضرب  
فقل هي جنة حُفَّت رباها بمكروهين من جوع و حرب (17)

## الحصار والسقوط

ذكر ابن خلدون حصار بلنسية للمرة الثانية (18) بداية من مهاجمة الإسبان  
للمدن الشرقية من الأندلس عندما تملك صاحب قشتالة مدينة قرطبة و ظفر صاحب  
أرغون بالكثير من الحصون حول بلنسية و بنى حصنا حولها لإحكام قبضته عليها  
فاعتزم أميرها زيان بن مردنيش على الخروج من المدينة و التصدي للإسبان واستنفر  
معه أهل شاطبة و شقر فزحفوا جميعا عليهم و لكن الغلبة كانت للإسبان في يوم  
عظيم البلاء استشهد فيه الشيخ أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس

و عند يوم 5 رمضان من سنة 635 هـ / 21 أفريل سنة 1138 م بدأ خايمي الأول الحصار المضيق على بلنسية من كل الجهات برا و بحرا فأوفد ابن مردنيش كاتبه الأديب الشاعر ابن الأبار إلى تونس إستنجادا بأمرها أبو زكرياء الحفصي الذي إستقبله في محفل كبير حيث أدى ابن الأبار بيعة أهل بلنسية

و أنشد قصيدته السينية الشهيرة طالبا فيها النجدة و أوردها ابن خلدون جميعا و قد استجاب الأمير الحفصي للنداء فبعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد السلاح و الطعام و المال فنزل بمرسى دانية لكن لم يأت أحد من قبل ابن مردنيش ليتسلمه بسبب صرامة الحصار حول المدينة و شدته

فتمثّل قصيدة ابن الأبار شهادة تاريخية على ذلك الحصار بالإضافة إلى كونها علامة إبداعية لما فيها من صدق الإحساس و براعة الإلتماس فهي تعتبر أنموذجا لشعر الحصار في الأندلس و قد أدت الغرض من صياغتها وإنشادها حيث لبّى الأمير الحفصي مضمونها

فهي من هذه الناحية مثال تاريخي واضح وصحيح على قدرة الكلمة على الفعل و التأثير الملموس في مجريات الوقائع بالإضافة إلى تأثيرها الأدبي حيث عارضها شكلا و مضمونا عديد الشعراء بعده ... بل إن هذه القصيدة ما تزال قادرة على إستلهام الواقع العربي المعاصر على مستويات عديدة.

## قصيدة ابن الأبار

مطلعها

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا      إنّ السبيل إلى منجاتها درسا

وهي في نحو 47 بيتا على بحر البسيط و قد قدّم لها ابن خلدون بقوله :

( و كان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ويحهم و ظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية، فأمل ابن مردنيش و أهل شرق الأندلس الأمير أبا زكرياء الكرة و بعثوا إليه بيعتهم، و أوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله ابن الأبار صربخا، فوفد و



أدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة، و أنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي  
السين يستصرخه فيها للمسلمين )

بلا مقدمات شعرية في وصف المرأة و الرحلة أو غيرهما من تقاليد الفن  
الشعري، و بلا إستطرادات في وصف الحسب و النسب و الشجاعة و الكرم لتمهيد  
المطلب على ما إعتاده شعراء المدائح، أعلن ابن الأبار الفزع و الهلع منذ الكلمة  
الأولى ذلك أن المناسبة تقتضي الجد و التصريح دون مداراة أو تلميح فكأن القصيدة  
جميعا صرخة واحدة أراد بها ابن الأبار و من خلاله الأندلسيون إستنفار الأمير  
الحفصي.

لقد إستعمل ابن الأبار التحريض لحثّ الهمة على الإسراع في النجدة فمّرّة  
يعود إلى الجانب العقائدي قائلا :

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم      إلا عقائلها المحجوبة الأنسا  
و في بلنسية منها و قرطبة      ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا  
مدائن حلّها الإشراك مبتسما      جذلان وإرتحل الإيمان منبئسا  
و صيرتها العوادي عاثات بها      يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا  
ما للمساجد عادت للعدى ييعا      و للنداء يُرى أثناءها جرسا  
و مرة يلجأ إلى المعاني المدحية بما يتخللها من حماسة و فروسية مثل قوله:

ملك تقلدت الأملاك طاعته      دينا و دنيا فغشاها الرضى لبسا  
مؤيد لو رمى نجما لأثبته      و لو دعا أفقا لبّي و ما إحتبسا  
كأنه البدر و العلياء حالته      تحف من حوله شهب القنا حرسا

ولم ينس الشاعر ذاته في خضم هذه المناسبة فتذكر موطنه بلنسية بما فيها من  
جمال طبيعي و حنين لسالف عهوده العذبة بين مراتبها :

و أربعا غنمت أيدي الربيع بها      ما شئت خلع من موشية و كسا  
و حال ما حولها من منظر عجب      يستوقف الركب أو يستركب الجلسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا      و أين غصن جنيناه بها سلسا

لكنّ ابن الأبار ما كاد يصرف القول إلى الحنين و إلى نكبة بلنسية و إلى ذكر فضائل  
الأمير أبي زكرياء حتى نراه يعود إلى التأكيد على غرضه الأصلي والأساسي ألا وهو  
الإسراع بالنجدة حيث يقول :

يا أيها الملك المنصور أنت لها      علياء توسع أعداء الهدى تعسا  
و قد تواترت الأنباء أنك من      يحيى بقتل ملوك الصُّفر أندلسا  
طهّر بلادك منهم إنهم نجس      و لا طهارة ما لم تغسل النجسا  
و أوطئ الفيلق الجرّار أرضهم      حتى يطاطئ رأس كلّ من رأسا  
وأنصُر عبيدا بأقصى شرقها شرقت      عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا  
وإضرب لها موعدا بالفتح ترقبه      لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى !

إن التأكيد على النجدة بالجيش واضحة لكن الأمير الحفصي إكتفى بالمدد من المال و  
السلاح و الطعام حيث قال ابن خلدون عند آخر القصيدة :

(فأجاب الأمير أبو زكرياء داعيتهم و بعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد الطعام و  
الأسلحة و المال مع أبي يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص وكانت قيمة ذلك  
مائة ألف دينار وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار فنزل بمرسى دانية  
وإستفرغ المدد بها ) ( 19 ).

إن حصار بلنسية قد إنتهى بسقوطها على يد الإسبان و بعودة ابن الأبار إلى  
تونس حيث تولّى فيها خطة الإنشاء و العلامة غير أن حياته ستنتهي هو أيضا بمأساة. (

( 20

- (1) محمد الطالبي - مقدمة كتاب - الفتن و الحروب و أثرها في الشعر الأندلسي - للدكتور جمعة شيخة - ص 17 - تونس 1994 -
- (2) محمد العروسي المطوي - الحروب الصليبية - دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 - ص 215 -
- (3) انظر التعريف به في كتاب الدكتور جمعة شيخة - الفتن و الحروب و أثرها في الشعر الأندلسي - ص 101 تونس 1994 -
- (4) نفس المصدر - ص 103 -
- (5) - حسين مؤنس - مقال : السيد القمبيطور و علاقته بالمسلمين - المجلة التاريخية المصرية - المجلد عدد 3 - العدد الأول - ماي 1950 - ص 60 -
- (6) جمعة شيخة - نفس المصدر - ص 104 -
- (7) مقال حسين مؤنس - ص 65 -
- (8) أحمد مكّي - ملحمة السيد -
- (9) جمعة شيخة - نفس المصدر - ص 108 -
- (10) ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب - المدار العربية للكتاب - بيروت 1983 - ج 4 - ص 151-
- (11) ابن خفاجة - الديوان - ص 208 - طبعة الإسكندرية
- (12) جمعة شيخة - نفس المصدر - ص 113 -
- (13) إحسان عباس - تاريخ الأدب الأندلسي - دار الثقافة - بيروت 1971 - ص 186-
- (14) نفس المصدر - ص 187 -
- (15) نفس المصدر - ص 187 -

- (16) جمعة شيخة - الفتن و الحروب و أثرها في الشعر الأندلسي - تونس 1994 - ص 116 و نسب هذان البيتان لابن حريق في معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج 1 - ص 491 - طبعة بيروت 1955 -
- (17) نفس المصدر - ص 192 - 193 -
- (18) ابن خلدون - المجلد السادس من كتاب العبر - ص 600 - طبعة بيروت 1959.
- (19) نفس المصدر - ص 604 -
- (20) أنظر أخبار الشاعر ابن الأبار في : الحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير الشراج - الجزء الأول - القسم الرابع - ص 1204 - الدار التونسية للنشر 1979.
- و في تاريخ إفريقية في العهد الحفصي لروبار لبرنشيفيك - الجزء الثاني ص 388 و 404 - طبعة بيروت تعريب حمادي الساحلي
- وأنظر سيرته و مؤلفاته في كتاب تراجم المؤلفين التونسيين - محمد محفوظ - ج 1 - ص 16 تونس 1982